

فَدِيرِيَجُو

للكاتب الفرنسي بروسير ميريميه

بقلم الدكتور حسن صادق

عاش في هذه المحنة
ثلاث سنين كان في أثنائها
يخرج إلى الصيد نهاراً
ويلعب الورق ليلاً مع فلاح
يزرع له الحديقة الصغيرة
على أن يأخذ نصف غلتها
أجرأ له .

وفي أحد الأيام ، عاد

إلى البيت مبتهجاً لأنه وفق في الصيد إلى درجة لم
يمهدا من قبل . وما أن استقر به المقام حتى
طرق المسيح ، ومعه اثنا عشر رسولاً عليه بابه
وسأله الضيافة .

سرت بنفس فديريجو عبقة من السرور حين
رأى ضيوفاً يطرقون بابه في يوم أصاب فيه صيداً
كثيراً ، وأدخل الضيوف في بشر وإيناس وأعد
لهم كل ما عنده من ألوان الطعام ، ثم رجا منهم أن
يلتمسوا له المذرة إذا رأوا فيه العجز عن أن
يعاملهم كما يتطلب قدرهم لأن الزيارة جاءت على غير
انتظار .

نظر إليه المسيح الذي يعرف دون ريب
الغرض الذي يقصد إليه من زيارته ، وغفر له هذا
الشعاع البسيط من الزهو في سبيل إظهار ميله
الشديد إلى إكرام ضيوفه ، ثم قال له : « سنكتفي
بما عندك ، فرباعداد المشاء لأننا في وقت متأخر »
ثم أشار بيده إلى القديس بطرس وقال : « وهذا
جائع إلى أقصى درجات الجوع »

أسرع فديريجو إلى إجابة هذا الطلب ، وأراد

زعموا أنه كان بإحدى المدن الإيطالية رجل
يسمى فديريجو ، وسيم الطلعة رائع القسمات بديع
التكوين ، إلى أدب جم وحديث عذب وحلم
مستطاب . ولكنه كان ماجناً مستهتراً يألف
الرجس والفجور . كان كلفاً بالنساء مولعاً بالميسر
لا يطبق الصبر عنه . ولم يكن يؤدي قط (فريضة
الاعتراف) أو يذهب إلى الكنيسة إلا ليبحث فيها
عن فرص تعبد له سبل الخطيئة .

شاء له الحظ أن يربح في الميسر أموال اثني
عشر شاباً من أسر كريمة ، وأن يضرب عليهم ذل
الفاقة وظلم الخراب ، فاضطروا إلى الاندماج في
سلك الجنديّة المأجورة ، وماتوا وهم يحاربون القواد
المأجورين الذين يستخدمهم الملك ، محرومين من
الاعتراف والطقوس الدينية الأخيرة .

دارت الأيام دورتها وخسر فديريجو كل ما ربح
ثم جميع ما يملك ، فأنحدرت عنه النعمة ولم يبق له
إلا بيت عتيق فأثم في مكان هادي خلف بعض
التلال ، فذهب إلى هذا البيت وفي صحبته الاكتاب
والحسرة ليعتزل الاجتماع ويخفي بؤسه عن الناس .

وفي صباح اليوم التالي اجتمعت الجماعة المقدسة في الردهة فقال المسيح لفدريجو: «نشكر لك استقبالك الجميل وزيد أن نجازيك عليه أحسن الجزاء، فتمنّ علينا ثلاثة أشياء نستجب لك، لأننا قد منحنا كل قوة في السماء وعلى سطح الأرض وفي مستقر الأرواح»

فلما سمع ذلك فدريجو، أخرج من جيبه الورق الذي يحمله معه دائماً وقال: «أيها المنقذ العظيم، أريد أن أريح في كل مرة ألب فيها بهذا الورق» فأجابه المسيح في هدوء: «لك ما تريد» وكان بطرس الرسول جالساً إلى جانب فدريجو فقال له بصوت خافت: «كيف تطلب هذا أيها الخاطيء التمس؟! ينبغي أن تسأله السلام لروحك وأن يغفر لك ذنوبك وخطاياك» فأجاب فدريجو مطمئن النفس: «إني لا أشغل بالي كثيراً بسلام روحي» فقال المسيح: «لك عندى شيئان آخران تسألني إياهما»

— سيدى بما أنك كريم إلى هذا الحد فاني أرجو منك إذا شئت وتفضلت شيئاً يسيراً خلاصته أن أي شخص يتساق شجرة البرتقال التي تظلل بابي وتمتد فرووعها إلى نافذتي، لا يستطيع النزول إلا بإذني ومشيتي.

فأجابه المسيح إلى ما طلب. وفي تلك اللحظة ضرب بطرس الرسول فدريجو على مرفقه ضربة قوية وقال مغمماً: «أيها الخاطيء الشقي، ألا تخاف عذاب جهنم الذي تقودك إليه خطاياك؟! لم يفت الوقت بعد، وفي استطاعتك أن تسأله مكاناً

أن يقدم إلى ضيوفه شيئاً آخر فضلاً عن صيده، فأمر الفلاح أن يذبح الجدى الذي يملكه وأن يشويه على السفود.

ولما هي، الطعام وجلس الضيوف إلى المائدة شعر فدريجو بأسف، لأن نبيذه لم يكن جيداً إلى درجة ترضيه، فقال للمسيح: «سيدى، بودي لو يكون النبيذ أجود من هذا، ولكنى أقدمه إليكم كما هو بقلب خالص»

لم يتكلم المسيح ولكنه ذاق النبيذ وقال «كيف تقول؟! وم تشكو؟! نبيذك بلغ الغاية في الجودة. وإني أسأل الرأى هذا الرجل» وأشار بأصبعه إلى بطرس الرسول.

ذاق بطرس النبيذ واستمراه وأعلن أنه حلو جيد، ثم طلب من مضيفه راجياً أن يشرب معه فأقر فدريجو رأى بطرس بإيماءة من رأسه، وقد أخذ قوله وقول المسيح على سبيل المجاملة والأدب؛ ثم تناول جرعة، فعراه الدهش الشديد، لأنه وجد أن النبيذ الذي طعمه من كل نبيذ ذاقه في حياته، حتى أيام كان يملك الثروة الضخمة، ويفشى أخيراً المشارب. فعرف من هذه المعجزة أن «المنقذ» في بيته، فنهض من مكانه في إجلال وخشوع كأنما هو غير جدير بأن يأكل مع هذه الجماعة المقدسة.

ولكن المسيح أمره بالجلوس فأطاعه في احترام وفير. وبعد انتهاء العشاء، انسحب المسيح ورسله إلى الحجرات التي أعدت لهم، وبقى فدريجو مع الفلاح يلعب الورق كمادته ويشرب ما تبقى من النبيذ.

من السامعين أن فدريجو قد أصاب ثروة في بلاد أجنبية على حساب مقامرين أقل مهارة منه ، وشعروا بالرغبة الشديدة في الحصول على هذه الثروة الجديدة في أقرب وقت مستطاع .

وأراد بعضهم أن يحجروا في الحال إلى اللعب ، ولكن فدريجو رجا منهم أن يرجئوا اللعب إلى المساء وانتقل بالجماعة إلى بهو كبير مدت فيه موائد الطعام والشراب بأمره ، فوقع ذلك من نفوسهم موقفاً حسناً ونال جميل إعجابهم .

كان هذا الغداء أكثر إشراقاً من عشاء الرسل . وقدم فدريجو إلى رفاقه أجود أنواع البيرة وأشهى صنوف الطعام . وقبل مجيء هؤلاء الرفاق كان فدريجو قد حصل على ورق يماثل الذي معه تماماً حتى يستطيع عند الحاجة أن يحل محل الآخر وأن يخسر مرة في كل ثلاث مرات أو أربع فلا يمر بأذهان رفاقه أية خلجة من الشك في اللعب . وكان يحمل الورق الأول في جيبه الأيمن ويحمل الآخر في جيبه الأيسر .

ولما انتهى الغداء اجتمعوا حول منضدة خضراء وضع عليها فدريجو الورق العادي ، وحدد زمناً للعب ومبلغاً معقولاً من المال . وأراد أن يشمر بلذة اللعب ، وأن يعرف مبلغ قوته ومهارته ، فلم الدورين الأولين في حرص شديد ، ولكنه خسر وشعر في دخيلته بألم وحسرة ، ثم طلب للجميع نبيذاً واتهمز فرصة انهماك الراحين في احتساء الشراب تحب ربهم الماضي والمستقبل ؛ وأخفى باحدى يديه الورق العادي ووضع في مكانه يديه

في جنة الخلد « فأجاب فدريجو : « ليس هذا بالأمر الذي يتطلب العجلة » ثم ابتعد عن القديس بطرس حتى لا يضايقه بتلاحظاته .

وطلب المسيح من مضيفه أن يسأله الأمانة الثالثة ، فقال فدريجو : « أريد أن أرى مخلوق يجلس على هذا المقعد المجاور للموقد لا يستطيع أن ينهض إلا بأذني ومشيتي » . فاستجاب المسيح لهذا الطلب وغادر البيت هو ورسله .

وما إن اجتاز آخرهم عتبة الباب حتى أراد فدريجو أن يجرب فضيلة الورق ، فاستدعى الفلاح ولعب معه دوراً دون أن يلتفت إلى اللعب ، فرشح ؛ ثم لعب عدة مرات حتى ثبت لديه أن أمنيته قد تحققت .

غادر بيته وذهب إلى المدينة ، واستأجر أجل جناح في أنفم الفنادق . وانتشر خبر وصوله في سرعة عجيبة ، فتقاطر عليه رفاقه الأقدمون في اللعب والنجون وقالوا : « كنا نعتقد أننا لن نراك أبداً لأن بعض الناس قالوا في صيغة اليقين إنك زهدت في مسرات الحياة وأصبحت ناسكاً ! » فأجاب فدريجو وعلى شفثيه ابتسامة غامضة : « وهم على حق » فسأله أحد رفاقه : « إذن كيف كنت تقضي وقتك أثناء الأعوام الثلاثة التي لم يرك فيها أحد ؟ » فأجاب فدريجو في لهجة الروع : « في الصلاة يا أصدقاء الأعزاء ، وها هو ذا كتاب الصلاة » ثم أخرج من جيبه الورق الذي يحرص عليه الحرص كله .

أثار هذا الجواب ضحكاً عالياً واعتقد كل فرد

كل يوم أنخر أنواع التبيذ وأبدع ألوان الطعام ،
واشتهر قصره بأنه معهد السرّات .

وبعد عام قضاه فدرينجو في لعب لا يدعو إلى
الشك فيه ، عزم على أن يجعل انتقامه كاملاً فظليماً
من جميع كبار الأغنياء في البلد ، ثم استبدل بالجزء
الأكبر من ذهبه أحجاراً كريئة ، ودعا هؤلاء
الأغنياء إلى حفلة شائقة منقطعة النظير ، وأعان أنه
سيجلب إليها أعظم الفنانين والمغنين . وأنها ستختتم
بتقامرة جسيمة هائلة ، فحضر بعضهم ومعه كل
ما يملك من الذهب ، والبعض الآخر اقترض المال
الكثير من اليهود . وفي تلك الليلة ربح فدرينجو كل
هذا المال وسافر به بعد انصراف المدعوين

ومنذ ذلك الوقت أخذ لنفسه قعدة لا يحيد
عنها ، وهي ألا يلعب بالورق المبارك إلا مع اللاعبين
ذوى النية السيئة : لأنه يستطيع بمهارته أن يلعب
مع الآخرين بالورق العادي . زار مدناً كثيرة مقامراً
في كل مكان راجحاً في كل موطن ، وكان يشتري
من كل بلد ما ينتجه من البدائع . ورغم ذلك لم
ينس قط صرعاه الاثنى عشر شاباً ، وكانت هذه
الذكرى الأليمة تكدر عليه صفو حياته وتبلبل باله
في كل حين .

ولما ضاق ذرعاً بها ، عزم ذات يوم على أن ينقذهم
أويهلك معهم ، فرحل إلى جهنم تنفيذاً لغرضه
وييده عصا وعلى ظهره حقيبة ، ولم يصحب غير كلبته
العزيرة عليه (مارشسلا)

بلغ صقلية وتسلق جبل (جيل) ثم هبط من
فوهة البركان إلى جوفه ، وظل يتعمق في الهبوط
إلى مسافة تماثل ارتفاع الجبل حتى أشرف على فناء
(١)

الأخرى الورق المبارك . وفي الدور الثالث لم يعط
فدرينجو أقل التفات للعب ، واستطاع أن يلاحظ
الآخرين فوجدهم يغشون في لعبهم ويسرقون .
وهذه المعرفة المباغتة بعثت في نفسه سروراً كبيراً
وجعلته يعتقد أنه يستطيع أن يحصل على ما في
حيوبهم وهو هادئ الضمير ، لأن خرابه الساضي
كان منشؤه غشهم لا حسن لعبهم أو ضخامة ثروتهم .
وفي تلك اللحظة جالت بخاطره ذكرى ثروته الماضية
وذكرى الاثنى عشر شاباً الذين أقام يسره على عسرهم
وخراهم ، وآمن بأنهم كانوا أشرف اللاعبين الذين
صادفهم في حياته ، وندم للمرة الأولى على النجاح
الذي أحرزه عليهم . ثم حلت في وجهه سحابة
قائمة محل أشعة الفرح ، وتهد تهدة عميقة وهو
يربح الدور الثالث .

اتصل هذا الدور بأدوار ربح أخرى لفدرينجو
واستطاع في ذلك المساء أن يجمع مبلغاً وفيراً من
المال دفع منه ثمن الغداء الفاخر وأجر جناحه في
الفندق شهراً كاملاً . وكان هذا كل ما يريد في ذلك
اليوم . وأصاب الكدر الشديد رفاقه ، ولكنهم
وعدوه قبل أن يفادروا الفندق بالعودة إليه في
اليوم التالي .

وفي الأيام التالية عرف فدرينجو كيف يحسر
ويربح في اللحظات الملائمة ، فجمع في وقت قصير
ثروة هائلة دون أن يشك أحد فيه أو يدرك سبب
ربحه الحقيقي . ثم غادر الفندق ليعيش في قصر كبير
اشتراه ، كان يقيم فيه من حين إلى آخر أبهج
الحفلات وأنخمها . وأصبحت أجمل النساء يتشاحن
في سبيل نظرة من نظراته ؛ وكان يقدم للزائرين في

كبير يؤدي إلى باب الجحيم .

وكان يحرس هذا الفناء كلب ذو رؤوس ثلاثة
فاجتازه فدريجو دون مشقة . وبينما كان الكلب يغازل
مارشالا ويتألفها ، قرع فدريجو الباب ، فلما فتح
سأله بليتون خازن النار :

— من أنت ؟

المقامر فدريجو

— وماذا تريد ؟

— بليتون ، إذا كنت تقدر أن أول وأمه
مقامر على سطح الأرض يكون جديراً بأن يلعب
معك ، فإني أقترح عليك ما يأتي : نلعب عدداً من
الأدوار كما نشاء ، فإذا خسرت دوراً واحداً كان
لك ربحي ملكاً حلالاً تضيفه إلى الأرواح الأخرى
التي تعمّر دولتك . وإذا ربحت كان لي الحق في
اختيار روح من رعاياك في كل مرة أحمله معي
— لك حكمك

وطلب ورقاً للعب فقال فدريجو في لهفة :
« هاهو ذا الورق » وأخرج من جيبه الورق المبارك
وشرعاً يلعبان .

ربح فدريجو الدور الأول وطلب من بليتون
روح (ستفاند جاني) أحد الإثني عشر الذين يريد
إنقاذهم ، فأجيب إلى طلبه في الحال . وضع هذا
الروح في الحقيقة ثم ربح دوراً ثانياً وثالثاً إلى الدور
الثاني عشر ، وفي كل مرة كان يتسلم الروح الذي
يريد ويضعه في الحقيقة .

ولما تم له ما أراد ، عرض على بليتون أن يواصل
اللعب ، فأجابته وقد أخفى تدمره : « بكل سرور ،
ولكن لنخرج قليلاً لأنني لا أدري أية رائحة كريهة

قد انتشرت الآن في هذا المكان » وهو في الواقع
كان يبحث عن وسيلة للخلاص من فدريجو . فلما
اجتاز هذا الباب ومعه حقيته وعصاه ، صاح خازن
النار أن أغلقوا الباب خلفه . عاد فدريجو إلى بيته
القديم المنعزل ، وعزم على قضاء بقية عمره فيه .
وبعد عودته ببضعة أشهر ، وضعت كلبته مارشالا
عدداً كبيراً من الشياطين غريبة التكوين ، فألقاها
جميعاً في الماء .

وبعد انقضاء ثلاثين عاماً (وقد بلغ فدريجو
السبعين من عمره) جاءه الموت وأنذره وطلب إليه
أن يعد ضميره لأن ساعته قد حانت . فقال له فدريجو
المحتضر :

— إني على أتم استعداد ، ولكن قبل أن
تختطف روحي أيها الموت ، أرجو أن تعطيني
برقالة من هذه الشجرة التي تظلل بابي . حقق لي
هذا الرجاء فأموت راضياً ممتناً

— إذا لم يعوزك غير هذا ، فأنا لا أرفض
تحقيق رجائك

ثم تسلق الشجرة ليقتطف برقالة . وحين أراد
النزول عجز لأن فدريجو أراد له هذا المعجز . فصاح
الموت :

— آه ! لقد خدعتني يا فدريجو ! إني الآن في
قبضة يدك وتحت سلطانك . رد إلي الحرية أعدك
بمشرة أعوام تقضيها في الحياة

— عشرة أعوام ! ما أشد بخلك يا عزيزي !
إذا أردت النزول يا صديقي وجب عليك أن تكون
أكثر سخاء من ذلك

— أهب لك عشرين عاماً

ثم تبسم في سحرته

فقال الموت وقد تملكه الغضب من تبجح

فدريجو: «إذن ليس لديك إلا دقيقة واحدة بحياتها»

وحاول النهوض من مقعده . فقال فدريجو : « رباها !

أعرف بالتجربة أنك شديد الدقة في عملات ، ولكن

أتضمن على بعض أعوام أخرى ؟ »

اهتاج الموت وبذل جهداً كبيراً في النهوض

وقال : « بعض أعوام يا شقي ! » فأجاب فدريجو

« نعم . وثق بأنى لا أباغ في طلي هذه المرة . أريد

أربعين عاماً فقط للشروط الثالث »

أدرك الموت أنه عاجز عن النهوض ، كما كان

عاجزاً حين تساق شجرة البرتقال . وأن الذى

يعجزه قوة غير طبيعية . ولكنه في غضبه وهياجه

لم يشأ أن يجيب فدريجو إلى ما طلب

فلما رأى فدريجو عناده ، قال له : « أعرف وسيلة

تذهب بعنادك » ثم ألقى في النار ثلاث قطع من

الخشب فاشتعلت بعد لحظات وملأت النار جوانب

الموقد . ولم يلبث الموت أن شعر بالحرارة الشديدة

تكاد تحرق جلده فصاح قائلاً : « الرحمة ! الرحمة !

أعدك بأربعين عاماً ! »

ولما نطق بهذه الكلمات ، أشار له فدريجو أن

ينهض من مكانه ففر هارباً وحرارة النار تكوى

ضلوعه

مضت الأربعون عاماً فعاد الموت إلى فدريجو ،

وقد كان في انتظاره وإلى جانبه الحقيقة . فقال الموت

« حانت ساعتك فلا تحاول الإفلات منى بلا

جدوى... ولكن ماذا تريد أن تفعل بهذه الحقيقة ؟ »

— أمهزأنى ؟ !

— أعطيك ثلاثين

— لم تصل بعد إلى الثلاث

— أريد إذن أن تعيش قرناً ؟ !

— نعم يا صديقي

— أنت هازل يا فدريجو لا تعرف الاعتدال

— ماذا تريد ؟ أحب الحياة

— إذن اتفقنا على مائة عام ما دام الظرف يحتم

الوصول إلى هذه النتيجة

وبعد هذا الاتفاق استطاع الموت أن ينجو بنفسه .

وما إن غادر البيت حتى نهض فدريجو في صحة كاملة

وبدأ حياة جديدة في قوة شاب وتجربة شيخ .

واستمر في إرضاء شهواته وعلى الأخص الجسدية

منها دون أن يفعل إلا قليلاً من الخير كلما سنحت

له الفرصة ، دون أن يفكر في سلام روحه ، أى

عاش كما كان يعيش في أيامه الأولى

مضت المائة عام وجاء الموت ووجده طريق

الفراش فقال له : « هل أنت على استعداد ؟ »

فأجاب فدريجو : « نعم . لقد أرسلت في طلب قسيس

يتقبل اعترافى . اجلس على هذا المقعد قليلاً . إلى

لا أنتظر غير إنجاز الطقوس الدينية الأخيرة ثم

أندفع معك نحو الخلود »

جلس الموت على المقعد شفقة على فدريجو

وانتظر ساعة كاملة ولم يحضر القسيس . ولما سئم

الجلوس قال :

— أيها الشيخ ، ألم تجد من الوقت في الزمن

الطويل السابق ما تنظم فيه رحيلك ؟

— أقسم لك أنى كنت لاهياً عن ذلك

بعمل آخر

دخول الجنة ، سأحمل إلى المسيح خبر حضورك
وسنرى ما يقول »

ولما عرف المسيح الخبر ، خرج إلى باب الجنة
ووجد فدريجو واقفاً على العتبة ومعه الحقيبة ، في
كل عين منها ستة أرواح ، فاستدر هذا المنظر شففته
وقال : « آذن لك يا فدريجو في الدخول ، ولكن
ضميري لا يسمح بدخول الاثني عشر روحاً التي
تطالب بها جهنم »

فقال فدريجو : « كيف ذلك ؟ ألم أستقبلك في
بيتي ومعك اثنا عشر شخصاً وأكرمكم ما استطعت
إلى الاكرام سييلاً ؟ ! » .

سكت المسيح هنيئاً ثم قال : « لا سييل إلى
رفض ما يطلب هذا الرجل . إذن ادخل مادمت قد
استطعت الوصول إلينا » .

من صاري

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

التمن ١٢ قرشاً

— إنها تشتمل على أرواح الاثني عشر شاباً
الذين أنقذتهم من الجحيم في الزمن السالف
— ليدخلوها معك

وأخذ فدريجو من شعره وانطلق به في الهواء
نحو الجنوب ، وتغلغل بفريسته في هوات جبل (جبل)
حتى بلغ باب جهنم وطرق الباب ثلاث مرات ،
فقال بليتون :

— من الطارق ؟

— جئت بك بفدريجو المقامر .

فصاح خزن النار وقد تذكر في الحال الاثني
عشر روحاً التي خسرها : « لا تفتحوا ! إن هذا
الحيث إذا دخل فملككتي خربها ! »

فحمل الموت فريسته مكرها إلى باب « انظهر »
ولكن ملاكه الحارس أبي أن يقبله لأنه في حالة
الخطيئة الكبرى .

أسف الموت جد الأسف لا فلات فريسته من
جهنم وانظهر وعرف أنه مضطر إلى حملها إلى الجنة
فلما رأى القديس بطرس فدريجو قال له :
« أنجروا على المحي في الحالة التي أراك عليها ؛ ألا
تعرف أن السماء مغلقة في وجوه أمثالك ؟ : ما هذا ؟
إنك لست جديراً حتى بالظهر وتريد مكاناً في
الجنة ؟ ! »

فأجاب فدريجو : « هل استقبلتك مثل هذه
الشدة حين طرقت بابي أنت والسيد المسيح ورفاقتك
منذ مائة وثمانين عاماً ؟ : »

فقال بطرس الرسول في لهجة التائب المشوبة
بالرقة والحنان : « جميل قولك هذا ، ولكنني
لا أستطيع أن آخذ على عاتقي أمر الإذن لك في